أزمة الخطاب الديني في الفكر العربي المعاصر بين فوضوية التأويل وقداسة التنزيل

د.لبصير نورالدين
جامعة حسيبة بن بوعلي الشلف، الجزائر

ملخص:

إنّ البحث في موضوع أزمة الخطاب الديني المعاصر مجاله واسع، وقضاياه متعددة ومتداخلة ومتشابكة ومعقدة، يصعب الإلمام بها دفعة واحدة في هذه الورقة ذلك لأنَّ هذا النوع من التقريب والقراءة هي بالأساس مغامرة فكرية عويصة، هذا وقد عرف تاريخ الفكر العربي والإسلامي في حقبه المتعاقبة المختلفة أنماطاً متباينة من الممارسة التأويلية، حتى أصبح الجميع يدعي الحق في الممارسات التأويلية المتنوعة في الفضاء العربي المعاصر، لذلك سينصب الحديث على مشكلة التأويل، باعتبار التأويلية، شكلت الهيكل العام للثقافة العربية، ومكوناتها، ونظمها المعرفية، ونماذجها، ومساراتها...، والحال أنّها قد هيمنت على طول خريطة العقل العربي القديم، والحديث، وما أفرزته الإنتاجات الفكرية، والفلسفية، والأدبية، والمذهبية خير دليل على ذلك، والمتأمل في الفكر العربي المعاصر بدءا بـ "الإيديولوجية العربية المعاصرة" لعبد الله العروي و"نقد العقل الإسلامي "لمحمد أركون، و"التراث والتجديد" لحسن حنفي مروراً بـ"نقد العقل

العربي" لمحمد عابد الجابري، و"نقد العقل الغربي" لمطاع صفدي، وانتهاءً بـ "فقه الفلسفة" لطه عبد الرحمان، وغيرها من المشاريع التي حاولت رسم معالم نظرية التأويل،لا شك كلّ ذلك يدفع فضولنا إلى النظر في قراءة هذا الفكر العربي المعاصر لمفهوم التأويل، ودراسة تأويلات المعاصرين للخطاب الديني بين فوضوية التأويل وقداسة التنزيل.

الكلمات المفتاحية: الخطاب الديني؛ الفكر العربي؛ التأويل؛ الحداثة.

***Abstract*:**

The research on the issue of the crisis of contemporary religious discourse is wide, and its issues are multiple, interrelated and complex, it is difficult to know it at once in this paper because this kind of approximation and reading is basically a serious intellectual adventure. The history of Arab and Islamic thought in its various successive periods has defined different patterns of interpretive practice, So that everyone has claimed the right to the various interpretive practices in contemporary Arab space, Therefore, the discussion will focus on the problem of interpretation, considering the interpretation, formed the general structure of Arab culture, its components, knowledge systems, models, and paths ..., It has dominated the length of the map of the ancient Arab mind, the modern, and its intellectual, philosophical, literary, and sectarian productions produced by the Arab world.And contemplates contemporary Arab thought starting with "contemporary Arab ideology" by Abdullah al-Arawi, "Criticism of the Islamic Mind" by Mohammed Arkoun and "Heritage and Innovation" by Hassan Hanafi through "Criticism of the Arab Mind" by Mohamed Abed Al-Jabri, "Criticism of the Western Mind" by Mutaa Al Safadi, and "jurisprudence of Philosophy" by Taha Abderrahmane, and other projects that tried to draw the

parameters of the theory of interpretation, no doubt all this prompts our curiosity to consider reading this contemporary Arab thought of the concept of interpretation, and study the interpretations of contemporary religious discourse between the chaotic interpretation and holiness of download.

Keywords*: *Religious Discourse*; *Arab Thought*; *Interpretation*; *Modernity.

مقدمة:

الحمد لله الواحد القهار، العزيز الغفار، العظيم الجبار، أحمده سبحانه حمدًا يبلغ رضاه، وحلاوة محامده تزداد مع التكرار، وأشكره تبارك وتعالى، وفضله على من شكره مدرار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار، وأشهد أنّ سيدنا، وحبيبنا، وقدوتنا محمداً رسولُ الله، سيد الأبرار، وإمام المتقين الأخيار اللهم صل على أشرف من اجتبيته، وعلى من صاحبه ووالاه، وسلم تسليمًا لا يدرك منتهاه ،وعلى آله وأصحابه، وأتباعه كلما سكن ساكن ،وتحرك متحرك في ليل أو نهار، أما بعد: فكثيراً ما يعوّل الفكر العربي المعاصر على التأويل في قراءته للخطاب الديني خاصةً ما يتعلق بالقرآن الكريم، لأنّ التأويل مفهوم قرآني يسهل عليه الوصول للأهداف التي يسعى لتحقيقها بسهولة ودون إحداث ضجة، ولذلك يتخذ هذا الخطاب هذه الآلية كمظلة يمارس من خلالها القراءة والتي لا صلة لها بالمفهوم القرآني مطلقاً. ولما كان مصطلح الهرمينوطيقا من المصطلحات المستخدمة في دوائر الدراسات اللاهوتية يشير إلى مجموعة القواعد، والمعايير التي يجب أن يتبعها المفسر لفهم النّص الديني، وحتى لا يلفت الفكر العربي المعاصر الانتباه لمشروعه استعمال التأويلية، والتأويل لكونه مفهوماً إسلامياً قرآنياً ، وتراثياً بامتياز كمدخل إلى الهرمينوطيقا .

وهكذا يمكن اعتبار مفهوم التأويلية من المفاهيم التي استغلها الفكر العربي المعاصر في تبني كثير من المشاريع النهضوية لنقد الخطاب الديني، وتجديده، وتنويره.. لذلك نحن بأمس بحاجة، ونحن نتعامل مع التأويلية في الخطاب الديني إلى إقامة التوازن الدقيق بين العقل

والعاطفة، وهذا هو منهج القرآن في خطابه، ومنهج الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته، كما نحن بحاجة أيضاً إلى قانون الاتزان والتوازن، لأنّه في اعتقادي القانون الراسخ في صنع الحضارات.

أهمية الدراسة: وتأتي أهمية البحث في مثل هذا الموضوع لأنّ الفكر العربي المعاصر ظلّ، ومازال يطرح السؤال نفسه دون الوقوف على الإجابة المقنعة، وما زال في حيرة من أمره دون الوصول لجواب مقنع إلى اليوم، وهو كيف يمكن التعامل منهجياً مع الخطابات الدينية.

هل كان لزاماً على الفكر العربي المعاصر في مشروعه الحداثي أن يتجاوز عصر الظلامية كما يسميه إلى عصر الأنوار، كما تجاوزته الدراسات الغربية؟

ظهر في المعترك الثقافي تيار تأويلي جديد، يسعى إلى إعادة قراءة، وتأويل النص القرآني قراءة مغايرة تواكب التطور العلمي والمعرفي، فجاءت عدة مشاريع لخدمة هذا الاتجاه مستلهمة كثيراً من مناهجه وآلياته من المناهج الغربية، لذلك قصدت هذه الورقة البحثية الوقوف على هذه المشاريع القرائية للخطابات الدينية.. وممّا يزيد في أهمية البحث في مثل هذه المواضيع، هو كثرة التأويلات التي أدت إلى فوضى في قراءة النصوص، والعبث بالمقدسات.

المتأمل في كثير من مشاريع الفكر العربي المعاصر، يجد أنّها لم تستطع أن تصرح، وتجهر برفضها القرآن الكريم صراحة، وبشكل مباشر لأسباب ليس هذا مجال تفصيلها على الأقل في هذه الدراسة لأنّها تحتاج لأقبية أوسع ، ودراسة قائمة بذاتها، ولأنّ النوايا لا تهمنا أيضاً هنا، فقد حاولت الدراسة أن تكشف عن إحدى الآليات التي استُخدمت لأنسنة الخطاب الديني خاصة القرآن الكريم ، وهي التأويل، كما هدفت هذه الورقة البحثية للوقوف على الغايات التي ترنو إليها، وهي نزع القداسة عنه، والدعوة للتحرر من سلطته.

لماذا مازال الفكر العربي المعاصر يصر على استخدام هذه الآليات، والمنهجيات المستهلَكة، والتي تبث إفلاسها في الفكر الغربي يقدمها على أنّها آخر ما توصلت إليه المنهجيات الحديثة، وعلى أنّها من الآليات الضرورية اللازمة لفهم النّص، وتحليل الخطاب.

التشكيك في القرآن باستعمال التأويل; لقد قال هاملتون جب بصراحة: "..لكن الأجيال الإسلامية المعاصرة تحتاج إلى أكثر من هذا القول، فيجب أن يُثْبَت لها أنّ لا شيء في القرآن من التناقض، ولا من الباطل ....،وأنّ الفكر العلمي، أو الروائي التاريخي المعاصر لم يكتشف شيئاً يعارض سلطة القرآن وأوامره، لنصل بها إلى نتيجة لا نبلغها إلاّ إذا اعتمدنا على القول بأنّه من كلام الله، وأنّه لا يجوز الخوض فيه قليلاً ، أو كثيراً ....، فالمطلوب أساساً هو التأويل "[1].

لأيّ مدى يملك هؤلاء حق اللجوء إلى لتأويل، وآلياته، وإسقاطه على القرآن؟ أم هي دعوة لحرية التأويل للنّصوص المقدسة؟

أهداف الدراسة: هدفت هذه الدراسة للوقوف على جملة من الأهداف التي يمكن إجمالها في:

- محاولة الوقوف على الدوافع والبواعث التي تدفعهم لتأويل المقدسات؟ هل هو تقحم في المهالك، واجتراء على دين الله ،وافتراء على رسوله، وافتياتاً على شريعته؟.

- التأويلية أو الهرمينوطيقا التي تبناها الفكر العربي المعاصر في مشاريعه التنويرية والنهضوية، هو اجترار لما لفظته الثقافة الغربية، ومحاولة إسقاط هذه المناهج على الخطاب الديني وخاصة القرآن الكريم.

- بيان صدق إخضاع الخطابات الدينية للمناهج الغربية، مع تنامي ظاهرة التأويل في ظل التقارب والحوار بين الثقافات والحضارات ،حتى غدا هذا المفهوم ا(لتأويل) الطريق الملَكيُّ الذي انتهجه الفكر العربي المعاصر في تعامله مع النص وفي قراءته لتاريخ الخطابات الدينية.

إشكالية الدراسة: في(عصر ما بعد الأيديولوجيات)، و(عصر نهاية التاريخ)، و(عصر ما بعد الإنسان) التي تسعى إلى إلغاء كل الخصوصيات، ألغى الذات المتماسكة التي يتحد فيها التاريخ، والعمق والذاتية، وحلت القيمة التبادلية العامة محل القيمة الأصيلة للأشياء. ولهذا الغرض كان التركيز إما على المدخل الأدبي اللغوي، واعتباره المنهج الوحيد لفهم النّص القرآن وإما على المدخل الهرمينوطيقي أو اللسان حيث الألسنية فائدتها- كما يقرر الخطاب العلماني -

أنّها تزحزح كثيراً من قداسة النّص، وهيبته المفروضة علينا, فالألسنية تحيد الأحكام اللاهوتية الثقيلة التي تحيط بالنّص عبر القرون، وتبيّن أنّ النّصوص الإلهية كغيرها من النّصوص اللغوية خاضعة للمشروطيات البشرية، لذلك تروم هذه الورقة البحثية الموسومة بـ (أزمة الخطاب الديني في الفكر العربي المعاصر بين فوضوية التأويل وقداسة التنزيل) لتطرح على نفسها جملة من الإشكاليات: هل التأويل كمنهج يسعى إلى تفكيك الخطاب القرآني وتعريته من قداسته؟، ما المقصود بأنسنة النّص القرآني؟ هل يهدف هذا المنهج إلى رفع عائق القداسة عن النّص القرآني؟ هل هناك وحدة متخفية وراء هذه المقاربات التأويلية للخطاب الديني متذرعة بالمناهج الحديثة؟. هل يمكن استبدال التفسيرات الحرفية القديمة للنّص الديني بتأويلات جديدة تستفيد من المناهج التأويلية، والنقدية المستخدمة في حقل العلوم الإنسانية من أجل تقديم رؤية معاصرة لفهم الخطاب القرآني؟ أم أنّ التمسك بالنّصوص الحرفية يحول أصحابه إلى فئران الكتب وحفاري القبور؟ هل التأويل في عصر العولمة يسعى لأنسنة الإلهي، وتأليه الإنساني؟ هل تميزت تأويلات المعاصرين بالانتقائية في الاستدلال، والتزوير في الاستنتاج، والسطحية في الفهم؟ هل التزمت الموضوعية والأمانة العلمية؟ هل استطاعت أن تميز بين المعقول واللامعقول في تطوير الفكر الإسلامي؟ هل اتسمت تأويلاتهم بالانهزامية أمام الفكر الغربي وحضارته وفلاسفته؟ إلى أي مدى كانوا متأثرين بتجاذبات المنقول والمعقول؟ هل الاعتداد بالعقل وتقديمه على النقل يسمح لهم الوقوع في فوضوية التأويل؟ هل هناك سياق موحد للعمل التأويلي في الفكر العربي المعاصر، وإن اختلفت مشاربه ؟ هل الخطاب الديني علم سابق على كل علم، وأنّ كلّ معرفة جديدة صادرة عنه ومتضمنة فيه، فالأسلاف لم يتركوا شيئاً للأخلاف، ولا جديد تحت الشمس؟

التأويل بين صرامة المقدس وفوضوية المدنس: بداية نقرّ أنّ الفكر العربي المعاصر، في مقارباته التأويلية المعاصرة للخطابات الدينية، وخاصةً النّص القرآني يجد أنّها سلكت مسلكين في المقاربة والمعالجة التأويلية: المسلك الأول فوضوية في التأويل الممارس على النّص المقدس و المسلك الثاني التقديس .

وهل كان من مهام الفكر العربي المعاصر أن يأخذ على عاتقه كما يحلو لكثير من رموزه أن يسميه الخروج من السياج الدوغمائي المغلق، أو الدائرة الأيدولوجية"، والذي يزعم بأنّ ترسيخه، وتشغيله، وإعادة إنتاجه إنّما كان من قبل المؤسسات الدينية على مدى قرون طوال".[2]

والواقع أنّ التأويلية – كمنهج - ارتبط به الفكر المعاصر، إذ لا يكاد ينفك عنه، لأنّ الحداثة يؤرخ لها بميلاد الحركة التأويلية. ولذلك نرى أدونيس يربط بين الحداثة والتأويل، فالحداثة عنده "بدأت سياسياً بتأسيس الدولة الأموية، وبدأت فكرياً بحركة التأويل"[3].

المشاريع التأويلية ظلت في صراع بين المقدس والمدنس كل ذلك أفضى إلى فوضى في قراءة النصوص خاصة الدينية منها ،وهو ما يعكس الفوضى التأويلية الذي تعرفه الساحة الثقافية والفكرية من كسر للمتعاليات، ولا مكان لمقدسات، في عملية القراءة والتأويل، في ظل هذا الصراع ظهرت الدعوات التي تدعو لنزع القداسة عن القرآن الكريم و التعامل معه من حيث هو نتاج بشري خاضع لعاملي الزمان والمكان وليس هو وحي، وخطاب رباني جاء للهداية البشرية .

إنّ الفكر العربي المعاصر كان ينبغي عليه أن يدرك جيداً خلال ممارساته لعملية التأويل أنّ الأمة الإسلامية والعربية تنتمي إلى حضارة المقدس، والإيمان بالمطلق، وأنّ مشاريع القراءة التأويلية المعاصرة محكوم عليها بالفشل إذا لم تنطلق من خلال الإيمان، والمقدس .

إلا أنّ الصراع كان قد احتدم طوال القرنين الماضيين في بلادنا بين تيار ينتمي إلى حضارة المدنس والنسبية والمادية، وبين تيار يؤمن بحضارته، وثقافته متشبث بمقدساته، ومرتكزاته، ولما كان التيار المدنس قد تشبع بالحضارة المادية الغازية، وشربها حتى الثمالة، وهو في ذات الوقت يرغب أن يمسك بزمام المبادرة النهضوية أسوة بالنهضويين الغربيين، ولكن هنا واجهته حضارة قدسية متقاطعة جداً مع المادية النسبية والعدمية، ولذلك فقد وقع في مأزق التصادم بين الانتماء الفكري والثقافي من جهة، والانتماء الوطني والقومي من جهة أخرى .

إنّ تجربة النقد العنيفة التي أطاحت بقدسية التوراة والإنجيل، كانت من أبرز الخلفيات التي ساهمت في نشأة الاتجاه التأويلي في الغرب، فظهور التيار التأويلي في الفكر الغربي جاء متزامنا مع حركة النقد التي لم تستثن حتى الكتاب المقدس، وكان من رموز هذا الاتجاه الفيلسوف الهولندي سبينوزا الذي كان رائد مدرسة نقد الكتاب المقدس.

وقد كانت هذه المدرسة تنظر إلى الكتب المقدسة بوصفها نصوصاً بشريةً تخضع في نقدها لما تخضع له النّصوص البشرية من حيث التأثر بالبيئة، وبالظروف الزمانية، والمكانية التي ظهرت فيها تلك النّصوص.[4]

إنّ الخلط المنهجي الذي وقع فيه الفكر العربي المعاصر هو تبنيه لنظريات ومناهج نقدية نشأت في بيئة مغرقة في الإنسية، وتسعى لأنسنة المقدس، وتستبعد كون الوحي مصدراً للمعرفة.

وعندما تنزع من القرآن قداسته يصبح السؤال المرعب هل ينتقد القرآن؟ فأركون يعترف بإمكانية توجيه النقد للقرآن الكريم، لكن الفرصة لم تحن بعد; فيقول: "من المستحيل عملياً في اللحظة الراهنة فتح مناقشة نقدية تاريخية، أو حتى مناقشة تأويلية بخصوص القرآن"[5] ; بل هناك من يتجاوز الأمر، فعلي حرب يقول: "عملي يقوم على إخضاع القرآن لمحك النقد التاريخي المقارن"[6]; بل يذهب أبعد من ذلك عندما يقرر أنّ النظر إلى القرآن الكريم نظرة نقدية تاريخية إنثربولوجية ; يزعزع جميع أبنية التقديسية و التنزيهية التي بناها العقل اللاهوتي التقليدي.[7]

التأويل كمنهج يسعى إلى تفكيك الخطاب القرآني وتعرينه من قداسته: ظهر من النقاد من ينظر إلى النص القرآني كمنتج ثقافي، أنتجه واقعٌ بشري غير تاريخي في معظم الأحيان، ولذلك تعامل هؤلاء النقاد مع النص القرآني كنص أدبي قابل لفض أسراره اعتماداً على رؤية المؤّول الخاصّة.

إنّ التأويلية تسعى لإلغاء المقدسات نهائياً، وكسر المتعاليات، وتنظر للوجود من منظار مادي بحت فتدنس المقدس وتقدس المدنس، وهذا ما يعبرون عنه بانتهاء المتعاليات، و أنسنة المقدس، وأنسنة الوحي وغير ذلك من التعبيرات.

فإذا كانت الدراسات الغربية استطاعت نزع القداسة عن التوراة والإنجيل، فهل يفلح أنصار التيار التأويلي كمحمد أركون وغيره في تفكيك الخطاب القرآني وتعريته من قداسته؟, فيأمل هؤلاء أن يتحقق ذلك باعتبار أن التقديس للقرآن كان سبب براعة القرآن في التغطية التاريخية على أرضيته ،ولكنّه يرى في مكان آخر، أنّ: " التقديس للكتب المقدسة خلع عليها، وأسدل بواسطة عدد من الشعائر، والطقوس، والتلاعبات الفكرية الاستدلالية, ومناهج التفسير المتعلقة بكثير من الظروف المحسوسة المعروفة أو تمكن معرفتها، وأقصد بها الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية ... وهذا التقديس الذي خلع وأسدل قد توضحت أسبابه وبرهن عليها فيما يخص التوراة، والإنجيل, ولكنّها لم تحصل حتى الآن فيما يخص القرآن، ويطرح السؤال: لماذا ؟والجواب عنده بسبب الظروف السياسية والثقافية والتربوية للمجتمعات السائدة".

وحتى يتحقق هذا المقصد صاغوا لنا مجموعة من المصطلحات تطلق على القرآن الكريم من أجل زحزحة المقدس، واستبداله بمفاهيم مدنسة جديدة تقبل النقد، والتحوير، والإسقاط، فأطلقوا على القرآن مجموعة من المصطلحات: رواية، أو مجموعة روايات، أو هو مجرد حكاية من الحكايات، أو ملاحم دراماتيكية لساحر الخارق الخلاب،[8] أو المدونة القرآنية، أو المدونة النصية القرآنية، أو المدونة الرسمية، أو النّص الرسمي القانوني...، وغيرها من المصطلحات.

الخلط بين النص الأدبي والنص الديني: التأويل ارتبط أصلاً بالنص الديني قبل أن يرتبط بالنص الأدبي، لكنّه انتقل إلى النّص الأدبي، ثمّ أتى الحداثيون العرب ليقلبوا المسألة، ويأخذوه إلى تأويل القرآن، ويبدؤوا في فوضوية التأويل، والعبث بالنّصوص فساداً زاعمين أنّه نص كباقي النّصوص قابل للتأويل والدراسة كما لو كان كتاباً أرضياً .

لو اقتصر الأمر على الدراسات الأدبية فليس هناك إشكال، ولا مشاحة في الاصطلاحات، لكنّهم استخدموا هذه المناهج الأدبية بفلسفاتها الأوروبية من دنيوية، وفوضوية، وعبثية، ومادية، وغير ذلك، استخدموها في الخطابات الدينية .

يسمون أنفسهم بأصحاب الفكر المستنير أو مفكرو الحداثة أو غيرهم من الذين يتبنون اتجاهات فكرية وعلمانية حديثة ويتأولون النصوص، ومن ثمّ فلا حرج عليهم في ذلك، لأن هذه نزعت

عنها القداسة لذلك هم يستخدمونها بأي منهج يريدون، لأنّ القول بألوهيّة، وقدسية هذه النّصوص - في نظرهم - تجعلها نصوصاً مستغلقة الفهم على الإنسان العادي، ومن هنا نشأ الخلط الواضح بين النّص الديني، والنّص الأدبي عند نقاد الحداثة. وهذا ما صرح به أركون عندما يقف في وجه القرآن ويتصدى له, فالقرآن يرسّخ الأدلجة والأسطرة والتقديس, "لأنّ النصوص جميعاً سواء في ممارسة الحجب ،والمخاتلة والألاعيب والمراوغة "[9].

إشكاليات التأويل:

خرافة المقصدية: لعل من أبرز الثغرات المنهجية التي غفل عنها، أو تغافلها أصحاب القراءات التأويلية للنص القرآني هذا التجريد للنص عن مقصديته العلنية وأهدافه الكبرى، وتغييبه عن غاياته التي تحدد في الهداية والإرشاد والتزكية والعمران وحفظ الوجود البشري واستدامته، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور يعد من أبرز الإخفاقات التي سقطت فيها هذه المشاريع التي اختارت إبعاد القرآن الكريم عن رسالته ومقاصده. والنزوع نحو التحديث والتجديد والعصرنة...

تنازع السلطات في عملية التأويل: ترتبط قوة السلطة وهيمنتها بمفهوم التأويل، فالقدسية هيمنة وسيطرة وانقياد، إن امتلكها النص تمتع بها ومارسها على القارئ فأعجزه، وإن اختلفت للقارئ تقدس بها ومارسها على النّص.[10]

إنّ العملية التأويلية تقوم على مبدأ التفاعل بين (المؤلف، النص، القارئ) ويعدّ القارئ هو المجم الوحيد للوصول للنّص، كما يقول أمبرتو إيكو، إذ يميز بين مقصدية المؤلف، ومقصدية النّص، ومقصدية القارئ، فالعملية التأويلية لا تتم في مقاصد الكاتب، ولكن في مقصدية النّص، أو الكاتب النموذجي.[11]

موت المؤلف ونزع سلطته: إنّ إشكالية موت المؤلف إشكالية أوسع وأعمق من أن تختزل في العملية النقدية الأدبية، لقد ارتبطت العملية النقدية الأدبية على الأقل في القرون الثلاثة الأخيرة بالفكر الفلسفي الذي يتذبذب بين الوهم والحقيقة، واليقين والشك، وجاءت التفسيرات المختلفة لمعنى النّص انعكاساً لتناقضات الفلسفة حول الحقيقة والوجود والذات،

دائمًا كما نجد تلك الوشائج القوية بين تطورات الفكر العلمي الفلسفي، وتطورات الدراسات الأدبية، واللغوية في الغرب كلّ ذلك ساهم في مأزق نظرية موت المؤلف; إذ لا يمكن أن نتناول موت المؤلف من دون المقاربة الفلسفية، والفكرية، والتاريخية، والابستمولوجية ... إذ لا يليق أن نبتر هذا المفهوم عن سياقه الذي أنجبه وأخرجه، ولذلك يمكن إرجاع موت المؤلف إلى الصراعات التي كانت قائمة مع الكنيسة؟ لذلك لا تبدو لنا هذه الإشكالية بأنّها صراع من صراعات الدراسات، والمذاهب، والاتجاهات النقدية الأدبية، لكنّها في حقيقة الأمر صراع بين الفلسفات والإيديولوجيات، فقد ولدت في سياقات فلسفية، وفكرية، ومعرفية معينة ثمّ تحولت لاحقاً لمشروع تبنته البنيوية ،ومن ثمّ تلقفه الفكر العربي المعاصر في مشاريع القراءة التأويلية.

ولذلك، تنقدح أمام هذه السلطة جملة من الإشكاليات: ما هي الخلفيات المعرفية التي ساهمت في ظهور فكرة موت المؤلف؟ ماذا استفادت الحركة النقدية من هذه الإشكالية على المستويين النظري والتطبيقي؟ على أيّ أساس يتم إقصاء المؤلف؟ ما موقع النّص من نظرية موت المؤلف؟ ما موقع اللغة من نظرية موت المؤلف؟ ما موقع القارئ من نظرية موت المؤلف؟ هل هي نظرية أم مجرد إشكالية؟ هل هي إشكالية حقيقية أم هي مجرد مزاج من مزاجات الحداثيين بكونهم مولعين بالجديد والموضة، والتقليد؟ هل يمكن اعتبار هؤلاء مجرد عرّافين يضعون النّص على منصة التعذيب ثم يجبرونه على اعترافات كاذبة؟

وفي ظل الجنائز المتتالية؛ موت الإنسان، وموت اللغة، وموت الكلمة، وموت المؤلف، وموت النّص، وموت الإله .. هل نشهد جنازات أخرى كموت الناقد والقارئ.. ؟ كيف يمكن أن تطبق على القرآن الكريم نظرية موت المؤلف، واستقلال النص وقيامه كوناً مستقلاً بذاته يفهمه كلّ قارئ كما يشاء؛ حيث إنّه لا مانع لدى هؤلاء من أن يكون له تفسيرات بعدد القراء; بل أكثر من ذلك! فهذا الغذامي بعد أن أطال في تقرير هذا الأمر، يجعله من أعظم ميزات المنهج، وأسمى خصائصه: "الكاتب صاغ النّص حسب معجمه الألسني، وكلّ كلمة من هذا المعجم تحمل معها تاريخاً مديداً، ومتنوعاً وعى الكاتب بعضه، وغاب عنه بعضه الآخر، ولكن هذا الغائب إنّما غاب عن ذهن الكاتب، ولم يغب عن الكلمة التي تظلّ حبلى بكلّ

تاريخياتها، والقارئ حينما يستقبل النّص فإنّه يتلقاه حسب معجمه، وقد يمده هذا المعجم بتواريخ للكلمات مختلفة عن تلك التي وعاها الكاتب حينما أبدع نصه، ومن هنا تتنوع الدلالة وتتضاعف، ويتمكن النّص من اكتشاف قيم جديدة على يد القارئ، وتختلف هذه القيم وتتنوع من قارئ، وآخر؛ بل عند قارئ واحد في أزمنة متفاوته، وكلّ هذه التنوعات هي دلالات للنّص حتى وإن تناقضت مع بعضها البعض"[12].

وأهم مأخذ على نظرية موت المؤلف هو تطبيقها على النّص القرآني بأنّه نص كباقي النّصوص، وبالتالي تطبيق نظرية بارت، والتناص ونسقطه كلّه على النّص القرآني، أيقبل مسلم تطبيق هذا الكلام على القرآن؟ وهو بذلك خرج من البشري إلى الإلهي مما يفقده قدسيته، وإعجازه، وقد وقع في هذا بعض الباحثين.

إن أهم ما يمّز النّص القرآني منذ الأزل، إنّما هو مرجعيته الربانية، فالله عز وجل هو المرسل للوحي إلى الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسالة من السماء، فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى يحمل كل صفاته الأزلية، فكيف يمكن في هذه الحالة تطبيق عليه موت المؤلف؟ لماذا يصر أهل الحداثة على إحداث ثورة في الفكر الديني أو في العقل اللاهوتي،وخاصةً في مسألة موت المؤلف، إذا كانت الدراسات الغربية نزعت القداسة عن الكتّاب، ودخلت في دائرة الهرمنيوطيقا، ودخلت في الدائرة العريضة لأسباب التأويل، فهل يحق للفكر التنويري نزع القداسة عن القرآن الكريم كما نزعت القداسة عن الكتب السماوية الأخرى ....، وكيف يُسلَّم لهؤلاء بأنّ فهم الخطاب لا يتم إلاّ إذا نحينا مقاصد القائل جانباً، وافترضنا أنّه قد مات ؟! في حين أنّ المقصد، والغاية من بعثة الرسل والأنبياء والوحي عموماً هو الفهم عن الله عز وجل، وإنزال هذا الفهم تطبيقاً ،وعملاً ،وسلوكاً على أرض الواقع! .

سلطة القارئ: أصبحت جلّ الدراسات النقدية الحديثة توجه اهتمامها إلى التأويل لا إلى التفسير، وقد بدأ ذلك باهتزاز صورة المؤلف كصوت وهيمنة؛ بل وصل ذلك إلى حد دحض وجوده أصلاً، كما قد فعل كل من ميشيل فوكو وبارت وآخرين .. وفي ظلّ تنازع السلطة بين النّص، والقارئ الذي هو محور العملية التأويلية للخطاب الديني وجوهرها، إن توازنت توازن

التأويل، وإن رجحت كفة النص أعجز القارئ وانقاد له، وإن رجحت كفة السلطة للقارئ،[13] يصبح النص قابلاً لتعدد القراءات والاختلافات، ومسلكاً لصناعة تجاربهم، وبث أحكامهم، وأهوائهم، ويصبح النّص لعبة بيد القارئ، فهو كقارئ للنّص يغدو منتجه الأوحد، المنتج لا المستهلك ممّا يغرق النصوص في فوضوية التأويل.

ولذلك أصبحت التأويلية تدعو لعدم الرضوخ لأية سلطة حاكمة للقراءة والتفسير، سوى سلطة القارئ وحريته في تأويل النص.

وهذا ما دفع للاحتفال بميلاد سلطة القارئ باعتباره الجانب المهم في عملية الخطاب، فهو محور التوليد الدلالي، ومحور التأويل، والاستجابة الجمالية الخلاقة ،وهذا ما جعلهم يقرون بأنّ السلطة في النّص للقارئ.

وليس موت المؤلف، واللعب الحُرّ بالدوال، وانتفاء القصدية، وغياب المركز الثابت، وتعدد القراءات سوى ثمرة من ثمار الشك في اليقينيات حتى أصبح النّص - كما يصوره بارت- كصفحة السماء ناعمة منبسطة وعميقة من دون حواف، أو علامات، والقارئ كالعرّاف الذي يرسم عليها بطرف عصاه مربعاً وهميّاً يستطيع أن يستقرئ منه حسب قواعد معينة، حركة طيران الطيور.[14]

عدم وجود إمكانية قراءة صحيحة: فلقد اعترض الاتجاه التأويلي على سلطة النّص المطلقة، ونفى وجود إمكانية قراءة صحيحة، أو قريبة للنّص بدعوى أنّ مستويات القراءة، والتلقي تتنوع سعةً، وعمقاً من قارئ إلى آخر تبعاً لسياقه الفكري، والثقافي، وتبعاً لمؤهلاته الذاتية...، فالمتلقي له شرعية التأويل الحر تبعاً لثقافته وتجربته الذاتية.[15]

الانفلات الدلالي وخرافية المعنى: إنّ الانفلات الذي حدث في مشاريع القراءات التأويلية للنّصوص القرآنية قديماً، وحديثاً يقف على حقيقة: رهن المعنى في دلالته التاريخية، إذ كلّ ذلك مثَّل خطراً على الفكر الإسلامي، وعلى النّص القرآني ذاته، لأنّه يجرِّد كلام الله من الشهادة الخالدة على الناس، والتحرك الإيجابي مع صيرورة التاريخ البشري.

لقد كانت دوافع أصحاب هذا الاتجاه مفهومة، إذ واجهوا تياراً لا يقل خطورة على النّص منهم، وهو تيار غالى في تجاهل المعني التاريخي، وأنتج تأويلات شاذة بعيدة عن مقصدية المبدع المنـزل.[16]

وفي ظلّ الانفجار المعرفي الذي تشهده الدراسات النقدية المعاصرة؛ خاصة مع ظهور المقاربات المنهجية المختلفة؛ حيث استعان أصحاب المشاريع التأويلية في الفكر العربي المعاصر ببعض هذه المنهجيات النقدية المعاصرة في استنطاق النّص القرآني؛ دون مراعاة خصوصية الخطاب القرآني؛ فتناسلت المقاربات لدرجة يصعب معها الاهتداء إلى روح النّص وجوهره؛ ذلك أنّها هزّت أركان المعرفة العلمية بدورانها في فلك الدائرة التأويلية؛ إذ لا توجد ذات قصدية وواعية تكون مرتكزاً للعملية التأويلية، ولا توجد موضوعات خارجية مستقاة عن هذه الذات، ولكن كل ما هنالك منظورات متباينة ومتزاحمة...[17]

وتبقى الممارسة التأويلية المنتجة للمعنى ضرورة معرفية وحضارية، وكل محاولة تسعى لتغييب النّص، وقطعه عن إطاره الروحي، والثقافي والإنساني؛ سيكون مآلها الفشل؛ وهذا قصور في الفهم وعجز عن إدراك حقيقة العملية التأويلية؛ لأنّ: النّص ممارسة ذات معنى وليس فعلاً مجانياً .[18]

ما لا نهاية المعنى: التأويلات المتناسلة التي لا نهاية لها تفضي إلى ما لا نهاية المعنى، وذلك لأنّ المؤلف قد مات، والبحث عن مقاصده وهم، ولا توجد قراءة بريئة، واللغة نظام من الرموز، والإشارات، فإنّ النهاية لابد أن تكون "لا نهائية المعنى، كيف يمكن تطبيقها على القرآن؟ إنّ المعاني التي تلحق به ليست منه، وإنّما معاني ألصقها عدد من القراء بالنّص، وهذا ما يحثون عنه لأنّ رفض المعنى النهائي يعتبر نشاطاً ثورياً ،لأنّه في النهاية رفض للاهوت ولأقانيمه ورفض للعقل والعلم والقانون.[19]

فاتجاه ما بعد الحداثة يسعى إلى إعادة تعريف الحقيقة وتجريد صفة المطلقية منها بكونها متغيرة، وزعزعة الثقة بها وبأية ثوابت تمتلك صفة الإطلاق "من أجل ذلك سعت حركة مابعد الحداثة إلى تأصيل النص وانفتاحه، وقدرته على إنكار الحد والحدود؛ ممّا يجعله يقبل التأويل

المستمر والتحول والدائم، وبذلك -حسب رأيهم- تتحول النصوص إلى نصوص لانهائية في نصيتها، ولا محدودية في معانيها؛ مما يقضي إلى تعدد الحقائق، والعوالم بتعدد القراءات"[20].

النص المفتوح: يعد من المصطلحات ما بعد الحداثة، وهذا المصطلح يعني أنّ النّص قابل للتأويل المستمر، والتحول الدائم؛ إذ أنّه يتعدد بتعدد القراء، ولا شك أنّ القراء ليسوا على شاكلة واحدة؛ إذ تختلف طبائعهم، وثقافاتهم، ونفسياتهم وأحوالهم، وهم يحملون سائر هذه الأحوال إلى النّص الذي غدا النظر إليه نسبياً غير موضوعي؛ وبذلك يحمّل من المعاني والمضامين ما لم يرده قائله حتى ليقول فيه من شاء ما شاء، فالقراءة - عندهم - هي خلق جديد للنّص واكتشاف أبعاد فيه ربما لم تكن مقصودة في نشأته الأولى، وبهذا يتغير معنى النّص، ويتمّ تأويله حسب الأحوال والفروق والبيئات والحضارات والعصور، وقد ألفت كثير من الكتب التي تناولت النص الديني من هذه الوجهة، ولو اقتصر الأمر على الدراسات الأدبية لقلنا لا مشاحة في الاصطلاح، لكن عندما ينقل هذا التصور عن النّص المفتوح من المجال الأدبي، والنقدي إلى المجال الفكري، وإلى المجال الفلسفي، وإلى المجال السياسي، وخاصةً إلى المجال الأيديولوجي هنا يكمن الخطر.

الحق أنّ هذه الرؤية الحداثية التي انتقلت إلينا من الفكر الغربي، وإن بدأت بالنّص الأدبي، ثمّ تحولت إلى النّص الديني؛ فإنّها في الفكر الغربي لم تكن نتاج النظريات الأدبية في القرن العشرين؛ وإنّما انطلقت - ومنذ تاريخ طويل - من الدين، حيث نشأت في إطار الجدل الذي ثار حول النظر إلى الإنجيل حينما حطم لوثر النظام القائم، ودعا إلى مسألة تعدد المعاني في الكتاب المقدس، وهذا يعني أنّ كلّ اختلاف في التأويل إنّما هو موجود أصلاً في النّص، وبهذا يتحول معنى النّص لصالح المعنى الذي عند المتلقي؛ فيترسخ لذلك مبدأ الحرية في التأويل، ويحطم المرجع الواحد الذي تحاكم على أساسه التأويلات وتقام مقامه مرجعيات متعددة بتعدد الذوات المؤولة، وهو ما يسميه تودورف "Todorov" بالعدمية، وهذه العدمية - عنده - تجيء بشكل مباشر من انهيار العقائد المشتركة لكلّ المجتمع، وبذلك يصبح النّص مفتوحاً، وقابلاً لكل التأويلات المتقاربة؛ بل والمتناقضة أيضاً.

أما النّص المفتوح وعلاقته بالوحي فيتجلى ذلك في هجوم نصر حامد أبو زيد، ومحمد أركون على نصوص القرآن، حيث يرى أبو زيد أنّ النّصوص الدينية ليست سوى نصوص لغوية، ويتبنى القول ببشريتها، وينادي بتأويلها تأويلاً مفتوحاً متنوع القراءات بحسب نوعية، وعدد القراء؛ لأنّه يرى أنّ التمسك بحرفية النّص، ودلالاته اللغوية يجعل النّص مغلقاً، ومن ثمّ ينحصر فهم النّص في أقلية مستبدة مسيطرة حسب قوله، ونحواً من هذا الطرح، ومن زاوية تاريخية يدرس أركون نصوص الوحي وفق مفهوم النّص المفتوح أيضاً، وضمن منظور الدلالات المفتوحة القابلة للتجدد مع تغير آفاق القراءة، المرتهن بتطور الواقع اللغوي والثقافي - حسب كلامهم -.[21]

التعارض بين المعقول والمنقول: من تجاذبات العقل والنقل في التأويلية الحديثة أسبقية العقل على النص ممّا يؤدي إلى تحويل الفهم، والتفسير إلى عملية آلية تحكمها سلطة المنقول، وهو ما يجعلها تتعالى على التاريخ.[22]

نصر حامد أبو زيد يزعم أنّ النّصوص في ذاتها لا تمتلك أيّ سلطة اللهم إلاّ السلطة المعرفية التي يحاول كل نص -بما هو نص – ممارستها في المجال المعرفي الذي ينتمي إليه، وهذه السلطة – أي المعرفية – لا تحول إلى سلطة ثقافية اجتماعية إلاّ بفعل الجماعة التي تتبنى النّص، وتحوله إلى إطار مرجعي، وأما السلطة التي تتمتع بها النّصوص فيُضفيها عليها العقل الإنساني، ولا تنبع من النّص ذاته .

لقد ساد الخلاف طويلاً بين أنصار الاتجاه النقلي، وأنصار الاتجاه العقلي حول مسألة أسبقية الدليل النقلي على العقلي أو العكس، وقد كان لهذه القضية التي احتدمت منذ وقت مبكر أثرها في التفكير الإسلامي عبر القرون، وبقيت تتنازعها الآراء، وتتضارب حولها الأفكار، واتخذها البعض مطية لإطلاق العنان للعقل، وتحكيمه في تفسير كل آيات القرآن الكريم.

الخاتمة: فلقد ظلت هذه المناهج مجرد أدوات لتمرير الاختيارات، والتوجهات، والرؤى المذهبية التي يحملها أصحاب هذه المشاريع ممّا أساء كثيراً إلى هذه المناهج وغيب حقيقتها وحجب سوء استعمالها و الاستفادة من نتائجها.

إنّ آليات الفهم استهلكها الفكر الغربي وأجهضها، ولكن الخطاب الحداثي العربي ما يزال يجترها على أنّها المنهجيات الحديثة اللازمة لفهم النص، وتلكم هي الطامة الكبرى.

إنّ مشكلة الفكر العربي المعاصر لم يستوعب أنّ النظريات التأويلية الغربية تعيش في مأزق، وعدم الاستقرار، ولم تكلف نفسها عناء البحث عن النزاعات التي أثيرت تجاه كثير من الأمور المفصلية في النظرية ذاتها، وأصبحت نثق ثقة عمياء بهذه النظريات كأنّها حقيقة مطلقة دون التنبه للخلفيات الإيديولوجية والفلسفية التي ترمي هذه النظرية لتحقيقها.

لا نريد للفكر العربي المعاصر العربي في تعاطيه مع التأويلية أن يصبح مرهوناً في أصالته وقدرته على الانفتاح، والتجدد بتعالقه مع المقولات النقدية الغربية الحديثة، حتى تمنحه البقاء، وتهبه شهادة استمرار الصلاحيّة.

إنّ القراءة التأويلية الحديثة Lecture Interpretative Modern مارست عملية الإسقاط في مقاربة الخطاب الديني بالمنهاج الحديثة.

النتائج المتوصل إليها:

-لا نعاني من النّصوص بقدر ما نعاني من اللصوص.

- لما كان الغرض أنسنة المقدس لذلك نرى تحول مصطلح التأويل الذي كان متداولاً في مباحث الخطابات الدينية إلى علم يبحث في آليات الفهم، في جميع النّصوص الدينية وغيرها.

- التيار التأويلي في نقده للقرآن باعتباره كتاباً مقدساً يكون قد تأثر بحركة الاستشراق، وأعاد أفكارها ،ومقولاتها في دعوتها القائلة ببشرية النّص القرآني.

- لم تفلح المناهج الحداثية في تخليص الخطاب الديني من أزمته ووضعيته الراهنة؟

- وغالباً ما يتسلّل هؤلاء في قراءة النّص القرآني قراءة حداثية من ثغرة التأويل، لذلك يبقى السجال الفكري اليوم يدور حول "النماذج التفسيرية" و"تقنيات التأويل"، لأنّ المعركة اليوم

معركة "تفسير وتأويل" بالدرجة الأولى, تدور حول السؤالين التاليين: كيف نفهم النّص؟ وكيف نفهم حملة النّص؟

- يبقى التأويل الصخرة العاتية التي اعتمد عليها الفكر التنويري لتكسير وحدة الفكر الإسلامي..

- أيعقل أن تطبق على القرآن الكريم نظرية موت المؤلف واستقلال النص وقيامه كوناً مستقلاً بذاته يفهمه كل قارئ كما يشاء حيث أنّه لا مانع من أن يكون له تفسيرات بعدد القراء; بل أكثر من ذلك .

- لا ندري لماذا يحاول الفكر العربي المعاصر حسم الصراع في نظرية غير مستقرة في كثير من بناها الأساسية، على الرّغم من أنّها شرّعت للفوضوية في فهم النّص ولم تقدم معايير منضبطة في الفهم والتأويل.

التوصيات:

- لا نريد للفكر العربي المعاصر من خلال المشاريع التأويلية في قراءته للخطابات الدينية أن يقع في ما وقعت فيه الدراسات الغربية من مأزق الصراع بين الكنيسة وعصر التنوير، وينقل لنا هذه التجربة، لأنّ هذا النقل هو في الحقيقة إسقاط للواقع الغربي على الواقع الإسلامي من دون مراعاة للظروف الدينية والاجتماعية الفاصلة بين ذلك.

- توصي هذه الدراسة في ممارسة العملية التأويلية الحديثة لا ينبغي أن نجعل النّصوص الدينية والنّصوص البشرية متساوية .

- ربما من أصعب الحروب الفكرية حرب المصطلحات التي يخوضها الفكر العربي المعاصر اليوم في مثاقفته مع الأخر لذلك لابد علينا من أخذ الحيطة والحذر في تلقي هذه المصطلحات.

الهوامش:

[1] الاتجاهات الحديثة في الإسلام: هاملتون جب، ترجمة كامل سليمان ، دار الحياة 1954 ص :126.

[2] الفكر الإسلامي نقد واجتهاد: محمد أركون ، دار الساقي ,ص:12.

[3] الثابت والمتحول، ج3، صدمة الحداثة: أدونيس، دار العودة بيروت، ط4، 1983، ص: 9.

[4] أسس الحداثة: سبينوزا و تأويل النصوص المقدسة لأحمد العلمي مجلة مقدمات ع19..2004.

[5] الإسلام والأخلاق والسياسة : محمد أركون، ص: 51.

[6] مجلة الثقافة الجديدة عدد 26-27 / 1983 , وانظر: الممنوع والممتنع :علي حرب، ص: 119.

[7] نافذة على الإسلام : أركون ، ص: 63.

[8] انظر: أركون القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني :محمد أركون، حيث يصف سورة الكهف بأنها حكاية ص:148.

[9] نقد النص: علي حرب، ص :17.

[10] تأويل القرآن سلطة القارئ أم سلطة النص: حمزة فاقل يوسف، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان ،2،1،المجلد2008،7،ص:14.

[11] U.ECO.lecto .in Fabuia. Tra.bar. Myraim Bouzoher. Grasset et Fasgueiie,Paris1985,p:58.

[12] الخطيئة والتكفير :عبد الله الغذامي، ص: 79.

[13] تأويل القرآن سلطة القارئ أم سلطة النص: حمزة فاقل يوسف، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، العددان ،2،1،المجلد2008،7،ص:7.

[14] المرايا المحدبة من البنيويّة إلى التفكيك: الدكتور عبد العزيز حمودة ،الكويت ،عالم المعرفة ، 1418 هـ / 1998 م ،ص:337.

[15] القراءة الجديدة للنص الديني :الدكتور عبد المجيد النجار ،مركز الراية للتنمية الفكرية ،2006،ص::122.

[16] النص القرآني ومشكل التأويل :مصطفى تاج الدين، ، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الرابع عشر، ص:15-16.

[17] مأزق الحداثة: الخطاب الفلسفي لما بعد الحداثة: رفيق عبد السلام بوشلاكة، مجلة إسلامية المعرفة، السنة الثانية، العدد السادس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ماليزيا، ربيع الآخر 1417هـ/ سبتمبر 1996، ص:118.

[18] Julia Kristiva, la revolution du langage ,poins ,Editions du seuil ,1974, p, 340

[19] عبد العزيز حمودة " المرايا المحدبة " ص 396

[20] النقد والنقاد المعاصرون: محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، القاهرة، (د.ت)،ص: 34.

[21] وأما الكتب التي تناولت نصوص الوحي وفق هذا المنظور المادي التقويضي المستهدف تدنيس المقدس وتهميشه؛ فمنها كتب نصر أبو زيد، وخاصة كتابه "مفهوم النص"، وكتاب لإبراهيم محمود بعنوان "قراءة معاصرة في إعجاز القرآن"، وللتريني كتاب "النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة"، ولنائلة السليني "تاريخية التفسير القرآني"، ولأركون "العلمنة والدين والإسلام" و "الفكر الإسلامي قراءة علمية"، وغيرها.

[22] الفاعليات الحاضرة والمغيبة في فهم النص الديني :وجيه قانصو مناصرة ، مجلة قضايا إسلامية ،ع 45-46، ربيع1431.